

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

الثورة العباسية

تُعَدُّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التي نشبت ضد بني أمية ، وهي ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعي ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرُّقَى على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محوً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح في وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة ، فظلت تشتعل من حين إلى حين في العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هبَّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستنشقون أبداً ، وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغي أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذي لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصابون فيه ولا يداهنون ، بل يشهرون سيوفهم بأذلين أرواحهم في سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الخفيف يقاتلون في سبيله ، فيقتلون من خالفوا

الطريق السويّ في رأيهم ويُقتلُون راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفي بالكوفة ، وقد تكفّل مصعب بن الزبير حين كان والياً لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرماً . ولم تقم الشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن علي زين العابدين في أول العقد الثالث من القرن الثاني ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتل على أثره ، كما قُتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب في الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا في ذلك ألواناً من البؤس الذي يُطاق والذي لا يُطاق . فكان طبيعياً أن تكثُر مطالبتهم بالعدل الاجتماعي وأن يطمحوا إلى حكّام جُدُدٍ يُقرُّون فيهم مبادئ الإسلام الذي يوجب المساواة بين أفراد الأمة في جميع الواجبات المالية وغير المالية والذي ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها في أبناء علي وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعةهم ، غير أنهم فقدوا في أسرة علي وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الحرى الذي يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكْتَسَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، واكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضرون تحت أوية أبناء علي وحدهم دون مَنْ سواهم من الهاشميين؟ لقد أخذوا يفكرون في ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيته المبتغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التي تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم - الذي ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها - بلدة الحُمَيْمَةِ ببلقاء الشام ونزلها معه علي بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبي هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَوّاً إلى تنظيم الدعوة العباسية سرّاً من مقرّه في الحَمَيْمَة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهداً لها ومركزاً^(١) ، ووضع خطة تنظيمها هناك في يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالي هناك يمثلون سخطاً وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلماً إلا ليقيموا مكانه ظلماً أشدّ عنفاً . وقد اتخذ دعائه هناك من التجار وكانوا أخلاطاً من عرب وموال ، فضوا يثيرون الناس هناك ضدّ بنى أمية مصورين ما ينبغي أن يسود في الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن علي مكانه بـكَيْسِر^(٢) بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضاً بعظام الأمور ، فوثق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفى الإمام محمد بن علي سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفى على إثره بكبير فخلفه على الدعوة صهره أبو سلمة^(٣) الخَلَّال ، فجعدّ في الأمر وجدّد معه الدعاة . وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة ، وكان مدمناً للخمر منادماً للفُسَاق والمغانى ، وكانما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبي سلمة في خراسان ، فقد بدا في وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التي رزح الموالي تحت أنقالها الباهظة . وتراءى حينئذ في الأفق أن سلطان البيت الأموي يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضاً لما نشب من خلاف عنيف بين أفرادها ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنًا مرّاً ، وتغلّسب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهز الخوارج الفرصة ، فنزلوه في الموصل وفي اليمن والحجاز .

وفي هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراساني قيادة^(٤) الدعوة في موطنه ، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم في النهوض بجملائل الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموي وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيملكهم الأرض ويجعلهم

(١) انظر في تنظيم الدعوة العباسية فلهوزن في

كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة

أبي ريذة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) ٦٢٢/٥ .

(٣) فلهوزن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبرى

(٤) فلهوزن ص ٤٩١ .

(١) انظر في تنظيم الدعوة العباسية فلهوزن في

كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة

أبي ريذة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبرى

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقين والناس يسمعون له ويحفون به وينضمون إلى دعوته حتى كثف جمعهم وحتى غدا نزاله لنصر بن سيار وإلى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلاً قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد - بداهته - إلى الإيقاع بين الكرمانى ومن معه من القبائل اليمنية وبين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسُفك فيها كثير من الدماء . حتى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى من وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط - واحدة إثر أخرى - في يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة وإلى على العراق أن يمداه بالنجادات ، ولكنهما كانا في شغل عنه بثورات الخوارج في العراق وغير العراق ، ويموت كمدأ بين الرى وهمذان . وتتقدم جيوش أبى مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصة المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهماً إلى الكوفة ، ثم يلتقى به فتدور عليه - كما دارت على نصر بن سيار من قبله - الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويُقتل قحطبة في ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض - قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير - على إبراهيم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذى يدبر هذه الثورة من مقره فى الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح . وقُتل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها فى أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون - طوال المدة السرية لدعوتهم - لا يذكرون للناس أنهم طُلَّابٌ خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التى

طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لاصلاح لها بعده إلا بمحوهم محواً . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقدموا القضية التي نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصره الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكي يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رِضاً^(١) من آل البيت النبوي ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوائهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كي يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذي لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد علي بن أبي طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبي العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلهم عزلاً تاماً عن جند خراسان ، غير أن أبا العباس استطاع الاتصال بأبي مسلم إذ وجهه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبي سلمة ، فأرسل إليه وقدأ من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده^(٢) له ، واتَّجه أبو العباس تَوَّجاً إلى المسجد الجامع في الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشْرَبَتْ إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو يحتاج بأبي القرآن الكريم على أن يبنه العباسي أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوقعاً فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثاً باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين في تحرير الأمة من نير الأمويين^(٣) ، ومن حكمهم الباغى الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه في الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارهه إلى الحيرة وأخذ في بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبا مسلم الخراساني بأبي سلمة فُدسَّ إليه مَنْ قتلته^(٤) .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن علي عم السفاح ، فالتقت به على الزاب شمالي العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

(٣) طبرى ٨١/٦ وما بعدها .
 (٤) طبرى ١٠٣/٦ والمسدودى ١٩٩/٣
 واليعقوبى ٨٩/٣ .

(١) انظر الطبرى ٧٩، ٢٧/٦
 (٢) الطبرى ٨٥/٦ ومروج الذهب للمسعودى
 (طبع دار الرجاء بالقاهرة) ١٨٣/٣ وتاريخ
 اليعقوبى (طبعة النجف) ٨٦/٣ .

ساحقة ، فولّى مع بعض فلول جيشه حتى حران وتركها إلى نهر أبي فطرس بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن علي ، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبي فطرس ، فإذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحاً فما زال يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتى لقي حتفه في بوسير من بلدان الصعيد لآخر سنة ١٣٢ للهجرة . وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم في واسط ، وقد ضرب من حوله الحصار ، حتى إذا جاءه ندمى مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين في التسليم لهم ، وسرعان ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين ممن كانوا معه (١) .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكاً ذريعاً يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتى ليتخذ ذلك شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن علي إذ دعا في أبي فطرس نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتى انبرى بعض الشعراء يحرصونه على الفتك بهم ثأراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ، فأمر بهم جميعاً أن يضربوا بالعمد حتى يلقوا حتفهم (٢) ، نكالا لهم ولآبائهم . وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان (٣) ، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتى موتاهم لم يفلتوا من هذا العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبشت قبور خلفائهم — ما عدا قبري معاوية وعمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحرقت بقايا جثثهم بالنار تحريقاً (٤) . وكان هذا البطش الذي لا يُبقي ولا يذر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموي الذي كانت نفوس الرعية تمتلئ سخطاً وحنيفة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرّمهم من الإنصاف

(١) طبري ١٠٤/٦ .

(٢) طبري ٩٧/٦ واليعقوبي ٩٢/٣ .

(٣) السمرودي ١٤١/٣ واليعقوبي ٩٣/٣ .

(٤) الطبري ٩٧/٦ ، ١١١ والأغانى

والعدل الاجتماعي ، ولما ازدري من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موثلاً لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح - كما أسلفنا - الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هي بغداد .

٢

بناء بغداد ثم سامراء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينههم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني عنه وحسن بلائه (١) .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور - بثاقب نظره - أن يحول حاضرته من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذي يبني به مدينته المحصنة الجديدة ، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبه بقعة بغداد التي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورهبان ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فأنبرى صاحبها يذكر له أنه يحفُّ بها أربعة طساسيج (٢) : طَسَّوْجان في الجانب الغربي هما قَطْرُبُل وبادورِيا ، وطسوجان في الجانب الشرقي هما : نهر بوق وكتلواذا ، فإن أجذب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحمَل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحمل فيه من متاجر البصرة التي

(٢) انظر الطبري ٢٣٦/٦ وابن الطقطقي ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهو الناحية .

(١) الطبري ١٤٧/٦ والفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي (طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة) ص ١١٦ .

تأتيها من المحيط الهندي وأيضاً ما يحمل فيه من عروض أرمينية والحزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هي وسط في سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعترزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون في أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسي وقال آخرون إنه اسم آرامي^(١) ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله « جَلَّ وَعَزَّ » ، لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تُضْرَب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موثلاً لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقي بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُ حواليها أديرة كثيرة .

وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرتة ، بل قلعتة الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثّل لهم صفتها التي في نفسه ، وهي أن تكون مدوّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لبنة فيها بيده سنة ١٤٥ قائلاً : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التي كانت لا تزال قائمة في المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائماً بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن إجمال وصفها في أنه كان يستدير حولها خندق^(٢) كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراهما سور داخل مبالغاً في تحصينها . وفتّح في كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام في الشمال الغربي ويقابله باب البصرة في الجنوب الشرقي على الصراة التي تأخذ من الفرات وتمضي حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان في الشمال الشرقي بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة في الجنوب

وختصر البلدان لليعقوبي وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد في عهد الخلافة العباسية لجى لسرافج ترجمة بشير يوسف فرنسيس (طبع المطبعة العربية ببغداد) وبغداد مدينة السلام لطف الراوي (طبع دار المعارف) .

(١) راجع كتاب بغداد قديماً وحديثاً لمصطفى جواد وأحمد سوسة (طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي) ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر في تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ومعجم ياقوت

الغربي . وكان على كل باب خارجي مجلس يُصعد إليه على الخيل وقياب مذهبة في رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنِي في الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبني بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم في صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تمثال فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيراً من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصرًا صيفياً على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها في قناتين بطننتا وغُطيتا بخشب الساج حتى لا تلوّثهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفي ضواحيها بعد ذلك القنوات . وفي سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدى أمامها شرق دجلة ، جعل له سوراً وخندقاً ، ومن ورائها قصر الرصافة بناه للمهدى . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرت الأبنية وضمَّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرقي . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة في الغرب والرصافة في الشرق ، كما شملت أرباضاً ومحال كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاحى . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابتنى البرامكة كثيراً من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصياغة مستبدل النقود وذاك سوق الورّاقين ، وهذا سوق بائعي الحلوى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالحوارى من كل جنس . وأمّا المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمنتزهات وميادين اللاعب بالصولحان وغيره ،

كما تزينها القوارب التي كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلاجات وجعفریات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم في عسكره من الترك وآذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم في الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصدونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده في موضع ناء عن بغداد ، حتى يبعد أذاهم عن العامة ، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرقي دجلة بين بغداد وتكریت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتراه من أصحابه ، وأخذ في بنائها سنة ٢٢١ واختلف الباحثون في اسمها ، كما اختلفوا في بغداد ، فقيل هو اسم فارسي ، وقيل : بل هو آرامي^(١) . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رَأَى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وابتدأ فيها ببناء قصره^(٢) المسمى بالجوستى وابتنى بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابتنى دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابتنى بلخنده قطائع في المطيرة جنوبها ، واخطت فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقاً خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربي ، وأنشأ بها كثيراً من المنتزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سبباً في أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكذ يتقدم القرن الرابع الهجري حتى أصبحت أطلالا ورسوماً إلا ما كان من مسجدها الذي تأنق المعتصم في بنائه حتى قال المقدسي إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق في عمارته ، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

(٢) راجع في تخطيط سامراء المرجعين السالفين والمسعودي ٩ / ٤ وكتاب البلدان للياقوت ومعجم البلدان لياقوت .

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ٧٦ ومادة سامراء في دائرة المعارف الإسلامية.

النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذاناً بغلبة الطواغيع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي وعاشت تتنفس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتح الإسلامية مرتبة عالية في تنظيم الحكم ، حتى لرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم في هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتدياً فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقي : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهي خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكاسرة قد مَلكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازمة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دَحْلِيم وخَرَجِهِم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صِفْهُ ، فوصفه المَرزُبَان . ففظن عمر لذلك ودَوَّن الدواوين وفرض العطاء (١) » .

وكان هذا الديوان الأصل الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولائه في الشرق أن يستعينوا في جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون في جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت في أيدي هؤلاء الدهاقنة سجلات الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها في العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية في الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعرّبها ،

(١) ابن الطقطقي ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرّب في خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتح في العراق وخراسان بدهاقنة الفرس في إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر في الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدّ في اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعاً عند القوم فإنه لم يخطر بباله ، إذ أبى الخلافة على أساس شورى انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام ، فيجعل الخلافة وراثية في بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك في التأثير بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديواناً للخاتم وديواناً للرسائل محاكياً بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها في كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكاً ساسانياً ، فهو يحكم حكماً مطلقاً وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى ، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحمّاة له وحرّاساً . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح في الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » . وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً في الأعيان والأموال فمنعه في ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفاء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر في خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون - على شاكلة الساسانيين - في وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم فهم « سلطان الله في أرضه »^(١) . وأحاطوا أنفسهم - على مثالهم - بنظام تشريفات معقد ، محتفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريفات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن في عصر بني أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحُجَّاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم . وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابه في جانب ، وفي جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد^(٢) والنَّطَّع دائماً أمامه ، فمن غضب عليه أطاح برأسه تَوْأً .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحَسَّبُ فيه أى حساب للرعية ، فهي أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أى شيء ، ففي يده كل الأمر وكل السلطان ، يولى الولاية والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالى غالباً من أهل بيته أو من أكتفاء حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التي لمعت في العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيباني .

واتسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان في كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولى عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند^(٣) الذى كان يُعنى بروتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذى لعب دوراً خطيراً في نهضة النثر العربي ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذى تُختمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

(٣) كتاب الوزراء والكتاب للجيشارى

(طبعة الحلبي) ص ٨٩ .

(١) طبرى ٣٣١/٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ٣٢٩/٢ .

في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القِصص ، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها عبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجري في الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون - في عصرنا - أدق الشبه مراسلي الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحصّون كل كبيرة وصغيرة للوالي ومن وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة^(١) . وقد أحكم هذا النظام للبريد لإحكاماً دقيقاً ، فكان هناك رسل موقوفون على حمل تلك الأخبار في سرعة شديدة على خيل مضمرة توجد في عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد ألّف من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهي كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة في المشارق والمغرب .

وليس هذا كل ما أخذه العباسيون عن ملوك بني ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضاً نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت في القرآن الكريم يقول جلّ شأنه على لسان موسى : (واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي) ومعناها في الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطلّق منذ فاتحة العصر العباسي على المستشار الأول للخليفة في إدارة شئون دولته . وهي وظيفة كانت معروفة في الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون - لاحتجابهم عن الرعية - وسطاء بصرفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بُزُرْ جَمِيهَرُ وزير أنوشروان الذي عُرِفَ بحكمته وحنكته . وكان العباسيين رأوا أن يجاروهم في هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة في تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقي : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ...

(١) انظر الطبري ٣٣٦/٦ .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتنقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقلنة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً^(١) .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسي ، وهو شيء طبيعي ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية . وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلال حتى إذا قضى نسحبه اتخذ السفاح بعده خالد بن برمك ، وكان قد جعلت تحت لواء أبي مسلم في حروبه ضد بني أمية ، وأظهر بسالة وحُنة حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد التوبهار البوذى في بلخ . واتصلت وزارته في عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات بقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووكى ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووكى المهدي بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفى المهدي وولى بعده ابنه الهادي ، فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن في نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالاً له قائلاً : « يا أبت أنت أجلسنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنى إليك فاسكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ، وافرض (اعط راتباً) لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنى غير ناظر معك في شيء »^(٢) ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحل والعقد ، فقلّد ابنه الفضل المشرق كله من الشَّهران إلى أقصى بلاد الترك ، وقلّد ابنه جعفر المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية^(٣) . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبنى الحياض

(١) ابن الطقطقى ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ص ١٩٠ .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٧ والمسعودى ٢/٢٥٧ .

والمساجد وزاد في عطاء القواد والهند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نواباً عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه . وظل يحيى البرمكي وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا هم المتصرفين أثناءها في جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمداً ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير في هذه النكبة ، فردّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقي يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوي نائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفّ أمانته (١) .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بني سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية في الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذي الرياستين : رياضة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكي يلي شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسياً وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبر أمره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهو لا يزال بمرو « يجلس على كرسي مجنّح ويحمّل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسي ونزل عنه ، فمشى . وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم ، ويعود فيقع على الكرسي . وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحمّل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه» (٢) . فحتى تقاليد وزراء الساسانيين في دخولهم على الأكاسرة وجلسهم بين أيديهم كانت تُحاكى محاكاة دقيقة . وكان من رسم ملوك الفُرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسةً لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

(١) انظر الطبري ٤٨٤/٦ وما بعدها
والمسعودي ٢٨٤/٣ والجهشياري ص ٢٠٦ ،
٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن النلقط
(٢) الجهشياري ص ٣١٦ .
ص ١٥٦ .

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو فيها» (١) . وطبق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاه الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زيٌّ ، فللقضاة زيٌّ ، ولأصحاب القضاة زيٌّ وللشراطيِّ ، وللكتاب زيٌّ ، وللكتاب الجندي زيٌّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنَّة ، ومنهم من يلبس الدرَّاعة (٢) ، ومنهم من يلبس القباء (٣) ، ومنهم من يلبس البازيكند (٤) ويلقى الخنجر ويأخذ الجرُّز (٥) ويتخذ الجمَّة (٦) . وكان الفقهاء يلبسون المبطنَّة والطيلسان (٧) والقلائس (٨) »

فتقاليد الساسانيين حوكت حتى في أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها في شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التي تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع في هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التي تتصل بالحكم الساساني ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله في هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل في رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس في السياسة والحكم على نحو ما يلقانا في رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و« الأدب الكبير » و« رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل — بعد ابن المقفع — المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التي تحمل تقاليد الساسانيين في الحكم والسلطان وحقاً فقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا في حديث الطبري عن الفرس في أوائل تاريخه الكبير وفي مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى وفي عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طُبعت بطوابع فارسية

-
- (١) الجهمشيارى ص ٣ .
 (٢) الدراعة : جبة فارسية .
 (٣) القباء : ثوب فارسي قصير .
 (٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .
 (٥) الجرُّز : آلة من حديد يضرب بها .
 (٦) البيان والتبيين ١١٤/٣ والجمَّة :
 مايسقط على المنكين من الشعر .
 (٧) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦٠/٥ .
 والطيلسان : ثوب فارسي .
 (٨) أغاني ٢٩١/٦ والقلائس : جمع
 قلنسوة وهي غطاء فارسي للرأس .

قوية ، تحولت في أثنائها الخلافة ملكاً كسروياً يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذى لا يعرف رقفاً ولا ليناً .

٤

العلويون والخوارج

مرّ بنا فى غير هذا الموضوع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء شهمم العلويين ، وأيضاً فإنهم أرادوا أن يثبتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ، فبى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفاً عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن الرسول لا يورث فى ماله فضلاً عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستوان على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول : فاطمة ، وأبناء على ابن عمه . وردّ عليهم العباسيون بأنه ينبغى أن يرجع فى ذلك إلى أصل حكم الله فى الموارث ، وما فُرض فيها من حَسْبِ العم لابن العم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه ، فهم يُدّون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه ميراثه ، وهم لذلك أوامر وأهله «خُصُّوا برحم رسول الله وقربته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته» (١) . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نصّ على إمامة على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لخدمهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك (٢) .

وأخذت الخصومة تشد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمسّ به رحماً وأيها أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصد العلويين فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم . وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبيت الدعاة له فى الحجاز والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجده فى طلب العلويين ، وحجّ ، فقبض على

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى

جماعة منهم ، وأوثقهم بالحديد ، وحملهم معه إلى الحيرة ، وهناك ألقى بهم في سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً . ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتى يعلن محمد بن عبد الله ثورته^(١) ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن علي زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده^(٢) ، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور ، وهى أول ثورة للزيدية . ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم ويتزل على أى بلد شاء . ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين في رأيه قائلاً : « إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا . . وإن أبانا علياً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء . . وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله ووصلّى للقبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة » . ولم يكذ المنصور يقرأ هذا الكتاب حتى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلاً : « بلغنى كلامك فإذا جُلُّ فخرك بالنساء لتُضِلَّ به الجفنة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة^(٣) . . وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقربة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤمَّ (في الصلاة) فكيف تورث الإمامة من قبيلها . . وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن ، فسلمّه إلى معاوية بخير قٍ ودرهم ، وأسلم في يديه شيعة . . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه . . ولقد خرج منكم غير واحد ، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم . . ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

(١) انظر في ثورة النفس الزكية الطبرى

١٨٣/٦ واليمقوبى ١١٠/٣ والمسعودى

٢٢١/٣ وابن الطلقى ص ١٢٠ .

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستانى (طبع

لندن) ص ١١٧ .

(٣) العصبة : الذين لا يرثون إلا بما بقى من

أصحاب القروض ، يشير إلى أن جده العباس

يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب .

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون نبي عبد المطلب»^(١) .
ولما لم تُجَدِ المفاوضات أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه
عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم
الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى
قُتِلَ واحتزَّ رأسه وحُمِلَ إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له
في البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد
عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند
« باختمراً » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقُتِلَ
ولاذت جموعه بالفرار ، وأخذ كثير من العلويين فألقى بهم في غياهب السجون^(٢) .

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين في أيامه فإنه لم يقض
على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سراً وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ،
وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت
بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورث ما كان فيها من تراث
شيعي ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والاثنا عشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى في حياة أبيه
فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر
حتى لو مات في عهد أبيه كما مات إسماعيل . ويتلو محمداً - عندهم - أربعة أئمة
مستورون يعقبهم عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة
القرامطة في البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق
هو ابنه موسى الكاظم الذي عاش بعده ، وسما بالاثني عشرية لأن الإمامة تنوالت
- عندهم - في اثني عشر إماماً هم : علي فالحسن فالحسين فابنه علي زين العابدين ،
فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ فموسى الكاظم المتوفى في سجن
الرشيد سنة ١٨٣ فعلي الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ فعلي

(٢) راجع في مقتل إبراهيم وحره الطبري

٢٥٠/٦ واليعقوبي ١١٢/٣ والمسعودي

١٢٢/٣ وابن الطقطقي ص ١٢٢ .

(١) انظر في حفيين الكنايين المتبادلين بين

المنصور والنفس الزكية الكامل للمبرد (طبعة

رايت) ص ٧٨٦ والطبري ١٩٥/٦ .

الهادي ، فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي المنتظر المتوفى حوالي سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتق - مثل فرقة الإسماعيلية - التقية ، فلم تجنحوا إلى ثورة علنية ضد العباسيين في هذا العصر ، وكانوا تركوا ذلك لأبناء الحسن بن علي بن أبي طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتقدون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين في هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصيح حقاً للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمي وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آل إليهم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسي بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوي يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شُغلت بحروب وفن داخلية ما زالت تنتخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشغل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم وتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعي وأن حقه في الخلافة مقدس ، ولو بغى وطفى وظلم ، وعليهم دائماً طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعه ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية في الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية في بني هاشم بل يقيمها على الشورى ليتولاها الأجدد بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون في تولية أي بكر وعمر وعثمان ، فأجدد المسلمين كفاء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمي أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشيء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقاً إنهم عنوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير في المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرّاً وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعاً ، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة قُتل أو زُجَّ به

في السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فها هي إلا أن تُعرف سريرته حتى يُشكَبَ فتصادر أملاكه ويلقى به في غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدي بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه - وكان زيدي الهوى - أحد العلويين من السجن وردَّ حريرته إليه ، فقد أُلقي به في السجن وظل سجيناً إلى أن شفَع له يحيى البرمكي عند الرشيد فأمر بإطلاقه^(١) .

وفي عصر الهادي خرج الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب في مكة والحجاز ، فلقبه ومنَّ معه جيش عباسي بالقرب من مكة ، في مكان يقال له « فنج » وقاتل قتالاً عنيفاً حتى قُتل ، وقتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا في العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان^(٢) . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الأدارسة^(٣) . وهرب أيضاً خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابته إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكي وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورقَّ له فأطلقه دون إذن الرشيد^(٤) مما كان سبباً في نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى في يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الاثني عشرية ، وظل في السجن إلى وفاته^(٥) .

ونخصي إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن علي بن أبي طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه^(٦) . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعفو عنه المأمون^(٧) . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعياً لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن علي بن أبي طالب

والمطبرى ٤٥٠/٦ ، ٤٨٥ والمسدودي ٢٦٢/٣
 وابن الطقطقي ص ١٤٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٢ .
 (٥) اليقوت ١٤٥/٣ والمسدودي ٢٦٥/٣
 وابن الطقطقي ص ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٧٢/٢ .
 (٦) المطبرى ١٢٣/٧ .
 (٧) المطبرى ١٢٥/٧ وابن الطقطقي ص ١٦٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٥٩ والمطبرى ٣٨٤/٦ .
 (٢) اليقوت ١٣٧/٣ والمطبرى ٤١٠/٦ .
 والمسدودي ٢٤٨/٣ والنجوم الزاهرة ٥٩/٢ .
 (٣) اليقوت ١٣٧/٣ والمطبرى ٤١٦/٦ .
 والمسدودي ٢٢٢/٣ والنجوم الزاهرة ٤٠/٢ ،
 ٥٩ .
 (٤) اليقوت ١٤٠/٣ والجهشيارى ص ١٩٠ .

المعروف بابن طباطبا ويقضى على ثورته قضاء مبرماً^(١) . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين في دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيّن له - وهو بمرو - أن يعهد بالخلافة من بعده إلى علي الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن في ترتيب الشيعة الاثني عشرية وكان مثالا للثقوى والورع وكان المأمون يبجلّه ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله وليّ عهده من بعده ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبس الخضر شعار العلويين^(٢) . ولم يكذب يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعنه إبراهيم بن المهدي . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفي طريقه بطوس توفّي علي الرضا ، فلم يتخذ وليّاً لعنه من العلويين ، بل عاد إلى بني العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل . وما إن وصل إلى بغداد حتى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفياً مدة حتى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مراراً^(٣) ، وكان مما وثق هذا العطف في نفسه ثمامة بن أشرس النمري مقدم المعتزلة في مجالسه ، وكان شيعي الهوى ، ولعله هو الذي دفعه إلى أن يأمر منادياً ينادى في الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّل على أحد من الصحابة ، وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضی الله عنه»^(٤) وأيضاً لعله هو الذي دفعه إلى أن يكتب في شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب - رضی الله عنه - على جميع الصحابة^(٥) . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

(٣) انظر الطبري ١٦٨/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٣/٢
 (٤) الطبري في حوادث سنتي ٢١١ ، ٢١٢
 وراجع النجوم الزاهرة ٢٠١/٢ .
 (٥) الطبري في حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٢ وقد أرمى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتفاضى عن مسيئتهم فإن حقوقهم يجب من وجوه شتى . انظر الطبري ٢١٠/٧

(١) اليعقوبي ١٧٥/٣ والطبري ١١٧/٧
 والمسهدي ٣٤٨/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٥
 والنجوم الزاهرة ١٦٤/٢ وفي مواضع متفرقة
 (انظر الفهرس) .
 (٢) انظر في بيعه المأمون لعلي الرضا كتاب اليعقوبي ١٧٦/٣ والطبري ١٣٩/٧ والمسهدي ٣٤٩/٣ وابن الطقطقي ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٢ .

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩ فقد خرج بالطائفتان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ، وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر وإلى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على أثر ولا على خبر (١) .

وقد استأثر التشيع في هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين . أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث لم يبق منهم إلى العصر العباسي سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة وخراسان وتونس . وكانت نظريتهم في الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون أن تُردّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ، غير أنهم مضوا فكفروا المسلمين واستحلّت بعض فرقهم لادماءهم فحسب ، بل أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضلّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا السيوف متهمين إخوانهم في الدين بالكفر والردة ، وبدلاً من أن يتعاونوا معهم في حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يمحوهم من الأرض محواً . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين في حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التي لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم في هذا العصر ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجُلُنْدِي وقد جرّد له السفاح جيشاً جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمه ، ففضى عليه (٢) . وفي عهد المنصور ثار ملبّد بن حرمله الشيباني بالجزيرة ففضى عليه أيضاً خازم ابن خزيمه (٣) ، وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد (٤) بن حاتم المهلبى . وفي عهد المهدي ثار بخراسان في طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم ، فتصدّى له يزيد بن يزيد الشيباني ، وأسرّه في جماعة من أصحابه ،

(٢) طبرى ١٤١/٦ .

(١) اليعقوبى ١٩٨/٣ والطبرى ٢٢٣/٧

(٤) اليعقوبى ١٢٠/٣ والطبرى ٢٥٨/٦ .

والمسعودى ٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٠/٢ .

(٢) طبرى ١١٤/٦ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدي ، فأمر بقتلهم وصلبهم^(١) ، وثار يقنسر بن عبد السلام الخارجي وقضى عليه بعض^(٢) القواد . وفي عهد الرشيد ثار الوليد بن طريف الشيباني بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمه فقتك به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرد له الرشيد يزيد بن مزيد في جيش كثيف ، فحقه محقاً^(٣) . وعاث حمزة الشاري في خراسان وأتى حنفة^(٤) ، كما عاث ثروان الحروري في ضواحي البصرة ولقي نفس المصير^(٥) . وفي عهد المأمون خرج مهدي بن علوان الحروري بسواد العراق وباعت ثورته بالفشل^(٦) على نحو ما باعت ثورة بلال الشاري^(٧) . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة وقضاء أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري عليه^(٨) . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون - حين يثورون - أن يُقضى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم في هذا العصر وثوراتهم في العصر الأموي ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ في الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

٥

أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبي العباس السَّفَّاح إذ سرعان ما توفي سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فهو الذي أصلها « وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس»^(١) ولم يكده يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله في شمالي سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| (١) طبرى ٣٥٨/٦ واليعقوبى ١٣٠/٣ | (٥) طبرى ٤٢٥/٦ . |
| والنجوم الزاهرة ٢٧/٢ . | (٦) طبرى ١٤٢/٧ . |
| (٢) طبرى ٣٧٢/٦ وأنظر النجوم الزاهرة | (٧) طبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة |
| ٤٢ ، ٤١/٢ . | ٢٠٩/٢ . |
| (٣) طبرى ٤٦٥/٦ والنجوم الزاهرة ٩٢/٢ | (٨) اليعقوبى ٢٠٧/٣ . |
| ٩٥ ، | (٩) انظر ابن الطقطقى ص ١١٦ . |
| (٤) طبرى ٤٧٢/٦ . | |

فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراساني في جيش جرار ، فهزمه هزيمة منكرة فرَّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن علي واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن علي والي الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفَّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصور حتى أحفظه عليه . وما زال المنصور يمكر بعمه حتى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات في حبسه (١) .

ولم يكن همُّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبي مسلم الخراساني وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علي أن يعود إلى خراسان ، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يمد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً داهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذكراً لخدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلاً يزيتون له المثل بين يديه ، فما زالوا به حتى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتفريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى من كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرَّق في جنده أموالاً كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به (٢) .

وغضب أتباع أبي مسلم في خراسان حين علموا بمصيره ، ولم يلبث أن ظهر بينهم سبناذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المسلمية أو الخرمية (٣) ، وقدم بهم إلى الرى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلي في جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته (٤) ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تسمى في نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدي وما زال به حتى خلع نفسه منها ، فصيرها في ابنه ،

(٣) انظر في الخرمية وعقيدتهم المسعودي ٢٢٠/٣ والفرق بين الفرق (طبع مصر) ص ٢٥١ .

(٤) الطبري ١٤٠/٦ والمسعودي ٢٢٠/٣ وابن الطقطقي ص ١٢٥ .

(١) الجهشيارى ص ١٠٣ واليعقوبي ١٠٤/٣ والطبري ١٢٤/٦ ، ١٤٥ ، ٢٦٩ والمسعودي ٢٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٧/٢ .
(٢) طبري ١٣٠/٦ واليعقوبي ١٠٢/٣ والمسعودي ٢١٧/٣ .

وبايعه الناس^(١) ، وأقرت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفانم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمية التميمي وفضّ جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيراً ، فأمر بقتله^(٢) .

وولى المهدي بعد أبيه سنة ١٥٨ وفي عهده تحركت الخُرَّمِيَّة حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبي مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته في سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاً من ذهب ركّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المتنّع الخراساني . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبي وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم . وبايعه خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، ووثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدي القواد وعلى رأسهم سعيد الخراسي ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش على مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما في القلعة من دواب وثياب ومتاع وأتى فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصَّ سماً وأسقى نساءه وأولاده فتسكف وتلفوا ، وبذلك خمدت حركته^(٣) . أما الحركة الثانية فكانت في سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الحرورية بمرجان تسمى الحمرة لحمرة راياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبد القهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا في الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمر جنده^(٤) .

وعظمت - في عهد المهدي - حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدي فيها شراً مستطيراً يتهدّد كيان الدولة والإسلام جميعاً ، فجدّ في طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦^(٥) وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديواناً يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكلواذاني^(٦) ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالا لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبي عبيد الله وبشار بن برد وتوفّي الكلواذاني سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حمّد وبنه^(٧) وهو محمد بن عيسى من أهل ميسان .

والنجوم الزاهرة ٤٢/٢ .
 (٥) الجهشيارى ص ١٥٣ وقارن بالنجوم الزاهرة ٤٥/٢ .
 (٦) الجهشيارى ص ١٥٦ والكلواذاني نسبة إلى كلواذا وهي قرية على بعد فرسخين من بغداد .
 (٧) اليعقوبي ١٣٣/٣ والطبري ٣٩١/٦ والنجوم الزاهرة ٥٥/٢ ، ٥٦ .

(١) اليعقوبي ١١٥/٣ والطبري ٢٧١/٦
 وابن الطقطقي ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢ ، ٥٣ ،
 (٢) اليعقوبي ١١٥/٣ .
 (٣) طبري ٣٦٧/٦ ، وابن الطقطقي ص ١٢٢ والنجوم الزاهرة ٣٨/٢ ، ٤٥ .
 (٤) اليعقوبي ١٣٠/٣ والطبري ٣٧٣/٦

وفي عهد المهدي أغار الروم على سميساط (١) ونكسوا بأهلها ، فجرّد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتولى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلاً الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يزّدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون (٢) .

ومما يؤثر للمهدي لإجراؤه الرواتب على الحجدّيين . وتوفى سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادي ، وسار على سنته في تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفي عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصبع بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس في صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه في سنة ١٦٩ (٣) . واعتزم الهادي خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكي عرف - كما قدمنا - كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفى بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعدّ عصره العصر الذهبي للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة في نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص المحكية عنه في « ألف ليلة وليلة » أثر في ذلك فإن مترجميها وواضعي بعض قصصها رأوا أن يدخلوه في ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والتّرف والبذخ . وحفلت حيثئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والجوارى من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كسلفاً بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقي : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلماهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، وحجّ ماشياً ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يُسرّ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

(١) سميساط : مدينة غرب الفرات في طرف

والنجوم الزاهرة ٤٧/٢ .

(٣) اليعقوبي ١٣٧/٣ والنجوم الزاهرة

(٢) اليعقوبي ١٣٥/٣ والطبري ٣٧٩/٦

. ٤٩/٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه» (١) وكان إذا لم يحجَّ أحجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدق من صُلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته (٢) ، وكانت أيامه تشبّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفاً ما كان من حركات بعض العلويين والخورج ، وفي عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمينية والمضرية وأطفاً نائرتها جعفر بن يحيى البرمكي (٣) ، وثار أهل الحوْف بمصر وقضى على ثورتهم هرثمة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية (٤) ، وثار الحمرة بجرجان وفضَّ جمعهم على (٥) بن عيسى بن ماهان ، وانتقض الخزر في القوقاز وأرمينية وقلم أظافهم خازم (٦) بن خزيمة ويزيد بن يزيد الشيباني ، وثار الحرمة بأذربيجان وعصف بهم عبد الله (٧) بن مالك ، وثار بلاد الزاب جنوبي الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك لإبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنوياً ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له « العباسة » التي بناها جنوبي القيروان .

وامتنع تقفور إمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التي فرضت على بلاده في عهد المهدي ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه برد ما أدَّوه منها في السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام (٨) » وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغنم كثيرة وافتتح هرقله ، فارتاع تقفور وفرغ فرغاً شديداً وتعهد بأداء الجزية صاغراً (٩) . ورأى الرشيد - فيما يقال - أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة في غربي أوروبا حتى يؤيده ضد إمبراطور

(١) ابن الطقطقي ص ١٤٣ .

(٢) طبرى ٥٣٠/٦ .

(٣) الجيهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦ ،

٤٦٦ .

(٤) طبرى ٤٦١ / ٦ .

(٥) طبرى ٤٦٦/٦ .

(٦) طبرى ٤٧١/٦ .

(٧) طبرى ٥٢٤/٦ والنجوم الزاهرة ١٣٩/٢ .

(٨) طبرى ٥٠١/٦ .

(٩) طبرى ٥٠٩/٦ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيدته الرشيد ضد الأمويين في الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة (١) .

وفي سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه في سنة ١٩٢ . ولكنه توفي في طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمَّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمَّ إليه الولايات الشرقية ، وأكد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسمهما على الوفاء به وتعليقه (٢) في الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤمن وضم إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسultan حاكمين . فلم يكفد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف (٣) بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق في البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربي والفارسي ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثاني يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمى مراجل . وما زال الحزب العربي - فيما يقال - يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيبه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه بخراسان ، وأخذوا في إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

٣٠٨ والنجوم الزاهرة ١١٩/٢ .
 (٣) انظر في هذا الخلاف الطبري ٢/٧
 والمسعودي ٣/٣٠٢ ، ٣٠٨ والجيشياري
 ص ٢٨٩ وابن الطقطقي ص ١٥٩ .

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن
 (الترجمة العربية) ٢١/٢ وقصة الحضارة
 لول ديورانت (الترجمة العربية) ٩٤/١٣ .
 (٢) الطبري ٦/٤٧٥ والمسعودي ٣/٢٧٠ ،

ابن ماهان في جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقى به في الرىّ طاهر بن الحسين ، فقتله ومزق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وحبسه ، غير أن بعض العسكر خلعوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويوليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل في فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفي هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة في طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالجنانيق فيكثر بها الحرق والهدم وتفضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترب المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصاري وابن الدريوش أن يجمعوا الفساد وشذوذ الدُّعَّار^(١) ولكن أننى لهما أن يدفعما ما تردت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طويلاً والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . ويبكى الشعراء من أمثال الحريري بغداد بكاء مرّاً ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة في يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرّاً من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل في طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توفى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه علي الرضا كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدي فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها في شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكف يستقر في بغداد حتى جعل من مجامع ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفي مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسي يعني بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل في عداد المشبّهة ، وما توفى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

(١) طبرى ٧/١٣٦ وما بعدها .

بامتحان^(١) الفقهاء فيها ، فن لم يقربأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد . وتوفى ثمانية سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبى دؤاد أحد رموس المعتزلة ، لا فى عهد المأمون فحسب ، بل أيضاً فى عهد المعتصم والواثق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفاً شديداً ، فضربهم ، من لم يقروا بأن القرآن مخلوق وأهينوا وردوا عوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقيده وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن ، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحملوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتى جاء الخبر بنعى المأمون ، فرُدوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت فى عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد فى إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولّاه خراسان فى سنة ٢٠٥ فقضى على رموس الفن بها ، ويقال إنه فكر فى خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولّاه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلي وضيق عليه الخناق حتى ألقى له عن يد طالباً الأمان^(٢) لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة^(٣) بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمينية المأمون ، واشتبكت الفئتان فى حروب دامية ظلت مضطربة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس فى الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطرهم فولّوا وجوههم إليها واستولوا عليها . فرأى المأمون أن يولّى على مصر عبد الله بن طاهر حتى يجمع ما بها من فتن وحتى يرد الأندلسيين

وابن طيفور ص ٧٧ .
(٣) انظر فى أحداث مصر التالية الطبرى
١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة
٢١٠/٢-٢١٦ والبعقوبى ٣/١٨٧-١٩٢ .

(١) انظر فى هذه المحنة الطبرى ٧/١٩٥ وما بعدها والبعقوبى ٣/١٩٤ وكتاب بغداد لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم الزاهرة ٢/٢١٢ ، ٢١٨ وما بعدها ، ٢٢٤ .
(٢) اليعقوبى ٣/١٨٧ والطبرى ٧/١٧١ ،

عن الإسكندرية ، فدخلها في ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش (كريت) فتزلوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد في رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقره المأمون على إمرتها ، وعزله في السنة التالية وولّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمينية ، وخرج لحربهم بالحوّف في ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل في المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمينية والقيسية وهزموه هزيمة منكرة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه ، فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط في مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لحمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فهدها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يوماً .

وكانت قد اندلعت في أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسي سنة ٢١٢ فواقعه مراراً منكبلاً به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ في بعض معاركه معه ، فخرّ صريعاً^(١) ، وكان لذلك رتّة حزن عميقة في العالم العربي جعلت الشعراء يبكونه طويلاً . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيباني ، فاشتبكا معه في غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن إمبراطور بيزنطة يعين بابك في حروبه ، فاستشاط غضباً ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين^(٢) ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيباني وجعفر الخياط ، ومضى في بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل إمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان في آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد ، ولم يلبث أن لبّى نداء ربه في موضع يسمّى «البُدّ تَدون»

واليعقوبى ١٩٣/٣ والنجوم الزاهرة في السنوات ٢١٥-٢١٨ وكتاب العرب والروم لغازيليف (نشر دار الفكر العربي) ص ٨٩ وما بعدها .

(١) اليعقوبى ١٩٠/٣ والطبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة ٢٠٩/٢ .
(٢) انظر الطبرى ١٨٩/٧ وما بعدها

وقد حُمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل في عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفف من حدتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وأذوا العامة في بغداد فبنى لهم سامراء ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . وفي أوائل عهده ثار الزُّطُّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف^(١) بن عنبسة . وماتوا في سنة ٢٢٠ حتى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبي دُلَاف العجلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً^(٢) ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولاً ، فتعالى التكبير ، وقُتل وعُلِّقت رأسه وأُحرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة - كما ذكرنا آنفاً - يضع يده في يد بابك ، وحدث أن أغار على زِبْطُرة^(٣) وأعلى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرَّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان^(٤) الروم في آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيباني ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين 'ذلاً' وصغاراً ، وقد أُخربوا فيما أُخربوا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم في عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامراته . وثار مازيار بيطرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التي حاربته مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقتل وصلب^(٥) . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرّاً آملاً في عودة دين آبائهما المحيوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل في سجنه حتى مات وصلب بعد موته^(٦) .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق ، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسدوى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٨/٢ وفازيليف ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٢٠٢/٣ والمسدوى ١٦/٤ والطبرى ٣٠٢/٧ والنجوم الزاهرة ٢٤٠//٢ .

(٦) اليعقوبى ٢٠٣/٣ والطبرى ٣٠١/٧ والمسدوى ١٦/٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٢/٢ .

(١) طبرى ٢٢٥/٧ واليعقوبى ١٩٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ .

(٢) انظر الطبرى ٢٢٦/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسدوى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ وما بعدها .

(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث في الطريق إلى بلاد الروم .

(٤) انظر في هذه الحملة الطبرى ٢٦٣/٧

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون بأنه مخلوق . ولم تحدث في سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب بعض الأعراب في الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير (١) . وشغب بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف (٢) التركي . وسرعان ما توفى الواثق سنة ٢٣٢ للهجرة .

(٢) طبرى ٣٣١/٧ .

(١) طبرى ٣٢٢/٧ وما بعدها واليعقوبي
٢٠٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٧ .